باب المراسلة والمناظرة

نشوء اللغة العربية

اذا نقد المقتطف تأليفاً ، تعرّض لموضوعه وجهاً لوجه ، دون القصد الى ما فيه من التبشيع استطراداً . فلقد وقفنا على نقد بعض المجلات السورية ، فاذا فيها ذمّ للغة العربية أشنع ذمّ وتقبيح لاصحاب معاجمها ، وتسديد سهام سامّة الى هذه اللسان ومحبيها . وما ذلك إلّا لاننا أثنينا عليها ثناء طيباً في تضاعيف كلامنا ، فأظهر الكاتب بسوأته هذه انهُ من اقحاح الشعوبية ومع ذلك لم يذكر كلمة واحدة للموضوع الذي وقفنا كتابنا عليه اي نشوء اللغة العربية ونموّها واكتهالها . ولذا ارتدَّ سهمهُ الى صدره فصرعهُ شرَّ صرعة

اما المقتطف فقد جرى في الميدان جرياً حثيثاً سديداً متتبعاً اياه بأحسن أسلوب ، على مألوف عادته وألطفه وأبدعه ، ولهذا نجيب على كلمته عما يبدو لنا

قال حضرة الناقد النابه في المجلد ٩٤ : ١٢٥ : « ونحن نرى ان مذهب العلامة الجليل على غرابته وبنائه على الافتراض لا على التحقيق العلمي لا يخلو من فائدة ومتعة »

قلنا : ان في ما ذهبنا اليه قواعد وضوابط تجري في اصولها جرياً مطرداً ، وليس هناك غرابة ولا افتراض بل كلهُ تحقيق علمي ونظر دقيق ، اذ لكل حرف من حروف اليونانية واللاتينية مقابل لا يحيد عن منحاه قيد شعرة . فاذا كان مثل هذا ، يسمى غرابةً وافتراضاً لا علماً ، فلا ندري كيف يكون العلم ، ولا على اي قوائم يقوم او ينهض؟ ولا ما يراد بالعلم في نظر الكاتب الجليل

واما سبب حياة بعض الكلم الدخيلة وتخليدها ، وموت بعضها الآخر وزوالها من عالم اللغة فهو لأن في تلك المفردات مادة وصيغة ووزناً ورشاقة وخفةً مقتبسة كلها من مزايا الضادية وخواصها الخالدة ، على حدّ ما نُرَى في العرب انفسهم ، إذ قاوموا جميع الامم وقارعوا الشعوب القديمة ، فمحوا وانقرضوا ، وناهضت لغتهم سائر الالسنة ، فكتب لها الفوز على ضرائرها . فكانت النتيجة إنهم بقوا الى عهدنا هذا مستأنسين بلغتهم ، فكأنهم قُدُّوا من الجلمود ، بل قل الحق من صخرة الخلود !

ففي (البنك) مثلاً اصل عربي وان لم يكن المعنى واحداً . فكفاها حياةً أنها اقتبست صحة وقوة من المادة العربية (ب ن ك) الضادية . وقل مثل ذلك على (التلفون) ففيه مادة (ت ل ف) والواو والنون من الكواسع المألوفة في منطق بني مُضَرَ ، بخلاف (التلفزة) فاذا سلمنا ان فيها مادة (ت ل ف) العربية ، فالزاي والهاء ليستا من الكواسع ، ولا مما تذيّل به المفردات

العدنانية . زد على ذلك أن السلف منّا لم يقابلوا الحرف الافرنجي بالفاء

أما (المناصرة) ومشتقاتها فقد تدخل في جميع مناحي المعاني . فتقول مثلاً : « هل الشهد بـ (المناصير) ، فيرى المشهد في (المناصرات) المستقلة في دائرة واسعة؟ فاذا قرأها العربي لأول مرة ، عرف معناها او يكاد يعرفه ، وان لم يسمع باللفظ ، اما (التلفزة) فلا يفهم منها شيئاً . وربما رأى فيها شيئاً من الجربزة ، والجرمزة ، والجلهزة والجرمزة ، والدلزة ، او ما يشمّ منها رائحة الخرفشة والخنبشة ! ! !

وأما (الفيزياء) فمخالف لما جاء منقولاً عن العرب وأما (علم الطبيعيات) فما نعمل بها ؟ فضلاً عن أنها مخالفة لما صرح به النحويون إذ قالوا : « وردت خمسة ألفاظ على وزن فعلياء وهي : كيمياء وليمياء وهيمياء وسيمياء وريمياء . (راجع روضات الجنات ص ١٥٦) . ومع قلة هذه المفردات الخمس ، لا نرى لها ذكراً ، اللهمّ إلاّ كيمياء وسيمياء ولا نزيد عليها . فهل نضيف الى لغتنا رطانة على رطانة . وعندنا ما نستغني عنها ؟

وأما قول الناقد الجليل : « إن التعريب جرى عليه العرب في القرون الاولى ، فقالوا : قاطيغورياس ومالنخوليا وإيساغوجي وأنالوطيقا والأسطرلاب (كذا . أي عطف معرفة على نكرة) ، وأقراباذين (كذا) وغيرها » فنحن لا نكره ولم نكره ولن نكره . لكن أيجهل أستاذي العلامة أن جميع المعربات ليست من قبيل واحد ، فمنها الرشيق والمأنوس ، ومنها الوحشي والحوشي ، فالعرب أخذت بناصية الأليف ، ورفضت المعرب المسيخ . فعاش من الدخيل القليل ومات الكثير فلا رحمة عليه . أو يجهل صاحبي الامام المنتقد أن معرّبي تلك الحروف كانوا أناساً واقفين على الإرمية واليونانية أكثر من وقوفهم على المبينة ، إذ كانوا احداثاً فيها . والدليل أن العرب الخلص وضعوا في مكانها حروفاً أخر ونبذوا في العراء تلك الرطانات التي تفزع الشياطين أنفسهم ، ولذا قتلوها قتلاً وحيّاً فقالوا في مكانها : مقولات وسوداء ومدخلا (إنمّ ينظر في ايساغوجي علم كتاب في المنطق) وعلم الحساب

بقي الاسطرلاب ، فان ابناء عدنان رأوا فيها روحاً عربية أي (اسطرلاب) على ما يقول صاحب القاموس[1] ، فتركوها بذمتها تقاضي الأمرين ، والاّ لو تفشّت تلك الأعجمية تفشّي

(١) يحسن بنا ان نذكر هنا ما يقوله الخوارزمي في من يؤول بعض الالفاظ الاعجمية تأويلاً يناسب الاشتقاق العربي ولا يفكر في أن لا مناسبة بين هذا الاصل وذاك . وان ذلك التأويل من قبيل كلام الرجل الحرف . قال في كلامه عن الاسطرلاب وتأويله تأويلاً عربياً : « الاسطرلاب معناه » « مقياس النجوم » وهو باليونانية (اسطرلابون) . (وأسطر) هو النجم و (لابون) هو المرآة . ومن ذلك قيل لعلم النجوم (اصطرنوميا وقد يهذي بعض المولعين بالاشتقاقات في هذا الاسم بما لا معنى له . وهو أنه يزعمون أن (لاب) اسم رجل . و (أسطر) جمع سطر وهو الخط . وهذا اسم يوناني اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف » الخ

الاعاجم (لو جاز لنا هذا التعبير) لأجهزوا عليها وأوردوها حياض الموارد التي لا مصادر لها

وأما (الاقراباذين) فإنّ أبصر مني فيها وفي اصطلاحها، فهي لا توجد في معجم لغوي لان العربي الصميم لم تدخلها في جنة كلامهم، فهي موجودة فقط في تصانيف بعض الاقدمين في العهد الذي كانوا يأتون بكل كلام اعجمي، ليوهموا الناس ان إغرابهم هذا يرفعهم الى اعلى مراقي العلم، ويظهرهم للعوام انهم واقفون على أسرار العلم لوقوفهم على رطانة الاجانب!!!

وأما الآن فانا لا نسمع في معناها إلا (تركيب الادوية) أو «علم الصيدلة او الصيدنة»

وأما «علم مظاهر الحياة» فهو كقولك «علم وظائف الاعضاء»، لأنه لا مظاهر إن لم يكن ثمّ وظائف فهما أمران متلازمان. زد على ذلك ان بصراء العلماء وحذاقهم رأوا في (الوظائف) — وهي جمع وظيفة — خروجاً عن معناها الفصيح الصحيح، الى معنى مولَّد — وقد ولَّدته قابلةٌ غير كيّسة عينها، فهي «غير قابلة» لان تمهن مهنتها، فمسخت الوليدة «غير قابلة» لتأدية معناها. ولهذا استحسن فريق أن يقولوا (علم مظاهر الحياة)

وأما (اللاقطة) فهيا — وإن كانت تصلح لمعنى آخر عام — تصلح لان يقيد معناها من باب تخصيص العام. وهذه خاصّة من خواصّ اللغات الحية. وهو كثير في كلامهم ولا جرم ان حضرة الناقد يدري هذا الامر أحسن دراية، بل أحسن مني بكثير، لكنه يتجاهل وهذه اللاقطة التي تكلم عليها، مأخوذة من المثل العربي الذي اشار اليه. فيكون كقولنا: كل كلام ينطق به اللاسلكي قد يلتقطه هذا وذاك لسقوطه في نصيب الجميع. وفي ذلك من الاشارة الدقيقة اللطيفة ما يقيم العربية في اعلى عرش ينصب لسائر الالسنة

وادخال (اللام) على جواب (لو) المنفي و (ما): هو من باب الزيادة اللفظية لا لشيء آخر. وهو — وإن كان ضعيفاً — حسن الوقع في السمع

ومجيء (عدة) بمعنى عدد كثير، وارد في كلام البلغاء الفصحاء قال اللغويون في تفسير أساغ: «اساغ فلان بفلان، اذا تمّ أمره به، وبه كان قضاء حاجته. وذلك انه يريد «عدة» رجال أو «عدة» دراهم، فيلقى واحداً، به يتمّ الامر، فاذا إصابه قيل اساغ به» — وفي المخصص في اجناس البُرّ والشعير: «ولسنبله (أي السنبل الجُعْبُرة) حروف «عدة» — وقال ابن السكّيت في تهذيب الالفاظ: «يقال أتانا دَهْمٌ من الناس، اي «عدة من الناس كثيرة». وهناك غير هذه الشواهد وهي لا تحصى

وقولنا: «ان نفس الكلمة اليونانية» فهو كقول سيبويه في مَذْحج: «الميم من نفس الكلمة» (وراجع اللسان في ذحج) — وقال ابن المبارك وهو من أئمة اللغة والنحو في معنى قفيز الطحّان: «هو ان يقول: أطحن بكذا وكذا، وزيادة قفيز من «نفس» الدقيق» —

وقال ابن الأثير في النهاية في مادة (ثرد) : بل المدة والقوة ، اذا كان النجم نضيجاً ، في المرق اكثر ما يكون في « نفس » النجم — وفي ثمشّان في باب التوكيد (٣ : ٧١) « ويُثرّد عليه نحو جاءني « نفس زميلي » « وعين » عمرو : اي ذاتهما . وفي التعريف : كتب ربكم على « نفسه » الرحمة اي ذاته انتهى . — وقال ابن شُمَيْل : « السهم نفس « الفصل » (راجع اللسان والتاج في سهم) ولو اردنا الامعان في ذكر مثل هذه الشواهد لملأنا جزءاً من اجزاء المقتطف

و (التلغراف) مات حين ظهور (المُبرق) للآلة . (والبرقية) للنبأ البرقي ، فهي حيّة فقط على لسان غير العربي الصليب

وقد ذكرنا سبب الرفض لادراج مقالاتنا اللغوية في مجلة مجمع فؤاد الأول ، فلا حاجة في صدرنا الى العود اليه ، اذ لا عظيم جدوى فيه . وسلامٌ على المخلصين في مباحثهم ، كناقد المقتطف العلامة وكمنشئه الكاتب الشهير ومنهُ تعالى التيسير

والآن ليسمح لنا حضرة الناقد الجليل الاول ان نسأله كيف جاز لهُ ان يقول في ص ١٢٤ وس ٢٣ : في التاسع عشرة بمعنى التاسعة عشرة

ثم أليس في قوله بعد سطر : في الرومية اليونانية خطأ طبع والصواب في الرومية واليونانية

وهل ورد في كلام « فصحاء » العرب مثل قوله : تكلم « عنهُ » (ص ١٢٥) وهو يريد « تكلم « عليه » ؛ نعم يقال : تكلم « عنهُ » اذا تكلم نائباً عن رجل اما في موضوع من الموضوعات فيقال تكلم « عليه »

وقال في تلك ص ٢ س ١٧ : « ولا ادري لماذا يُحِلُّ الأب شيئاً ويحرّم آخر مثله » — وانا لم احل شيئاً ولم احرم آخر . انما « استحسنت » استعمال بعض الكلم « وعِبْت » طائفة اخرى لاغية والفرق ظاهر بين ما قلت وبين ما يعزوه اليَّ حضرتهُ

وقال في تلك ص ٢ س ١٩ : « وما دامت الكلمة عن العربية ... » والذي رأيتهُ مستعملاً في كلام بلغاء الفصحاء : « الكلمة على ... » وان لقوله وجه تخريج وتأويل ، لكن الصراط المستقيم اولى من اتباع الصراط المُلتوي

وفي تلك ص ٢ س ٢٦ : « تثير الناقشة حول هذا الكتاب » . وانا لم اسمع بمثل هذا التعبير الذي يحتاج الى تخريج عميق وغوص بعيد في بحار التوجيه والتأويل ، ذلك التأويل الذي لا يخلو من تعسف انما المسموع ناقشهُ الحساب او في الحساب وناقشهُ الكتاب او في الكتاب والقائل صاحب اساس البلاغة ، وليس لي في هذا الانكار ناقة ولا جمل . والله أعلم

مصر القاهرة

الأب انستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية